

من أخلاق المؤمنين :

الإيثار

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

الإيثار

الإيثار خلق من الأخلاق التي ربي الإسلام أبناءه عليها. فعاشوا أخوة متحابين يؤثر كل منهم على نفسه كما وصف الله سبحانه وتعالى الأنصار بقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ^(١). وهو خلق يدل على نفس صافية. وقلب موصل بالله تعالى. واثق أن ما عند الله خير وأبقى. وأنه يعطي القليل ويأخذ الكثير. والكثير في جنة أكلها دائم وظلها ممدود. بل يأخذ اسمي من ذلك وأعلى أنه ينال رضا الله سبحانه وتعالى.

الإيثار هو تقديم الغير على نفس وحفظها الدنيوية. وذلك انتصار على الشيطان الذي يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً. وانتصار على النفس الأمارة بالسوء ويسمو بها إلى الدرجات العلى. وتخلص من الأثرة البغيضة وحب الذات التي تريد إرواء الشهوات وإشباع الرغبات. ولا يكثر بعد ذلك أن يببب غيره على الطوى كما قال القائل: (إذا مت ظمأنا فلا نزل القطر) ^(٢) ولكن صفة الإيثار تدفع إلى مشاركة الناس أفراحهم وأطراحهم كما قال القائل:

فلا نزلت على ولا بأرض :: سحاب ليس تتظم البلادا

إنه الإيمان الذي يخلق الإنسان خلقاً جديداً. وإنها العقيدة التي تملأ القلب بالأخوة الحقة...

وإذا راضت العقيدة قلباً فمن الصعب أن يكون أناني، ويؤثرون على أنفسهم وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة لأناس تحلوا بخلق. الإيثار فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}... فانظر إلى هذا الإيثار فقد ورد أن أسرة على بن أبي طالب كانوا في أشد الحاجة إلى الطعام - فقد كانوا صائمين - ووضعوا أمامهم قرصاً من الشعير. فلما أذن المغرب أتاهم مسكين وطلب الطعام فأعطوه ما أمامهم. وأفطروا على الماء وفعلوا مثل ذلك في اليوم الثاني مع يتيم. وفي اليوم الثالث مع أسير ثم لم يمنوا بل لم يطلبوا ممن أعطوهم جزاء ولا شكوراً ^(٣).

(١) سورة الحشر. الآية رقم (٩).

(٢) أي المطر.

(٣) من الصور الرائعة في القصص القرآني والتي تبين مدى إيثار السابقين ترى قول الله تعالى حاكياً على لسان موسى عليه السلام قصته مع الخضر لما ركب السفينة وخرقها: {قَالَ أَخَرَقَهَا بِذُنُوبِكُمْ وَلَقَدْ جِئْتُمُونِي بِهَا بِمَاءٍ مَّوْضُوعٍ فَاصْنَعُوا لَهَا فِئَافِئًا}

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وهي زوج رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه - سألتها مسكين شينا وهي صائمة. وكان عندها رغيف واحد كان معداً لتفطر عليه. فقالت لخدمتها: أعطيه إياه ففعلت. وما كان الله تعالى ليتركها بدون طعام تفطر عليه وهي التي أثرت على نفسها. فأتاها إفطارها هدية عبارة عن شاه بكفنها^(١). فقالت عائشة لفئاتها: كلن من هذا فهذا خير من قرصك.

وذكر صاحب كتاب إحياء علوم الدين أن عائشة رضي الله عنها جاءها عطاؤها من الغنيمة والفء - وكان ذلك مائة وثمانين ألف درهم - فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس. فلما أمست وكانت صائمة دعت بفطورها فكان خبزاً وزيتاً. وقالت لها الجارية: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري بدرهم لحماً لتفطر عليه؟ فقالت أم المؤمنين: لو ذكرتني لفعلت - ومعنى ذلك أنها نسيت نفسها والدراهم أمامها بالألوف... إنه خلق الإيثار. وكفى بذلك الخلق شرفاً يدل على حسن الثقة بالله تعالى.

وفي تفسير القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة ثم قال للغلام: اذهب بهذا إلى أبي عبيدة بن الجراح وقل له: إن عمر يقول لك: اجعل هذا في حوائجك. ثم أمر الغلام أن يتلأأ في بيت أبي عبيدة حتى ينظر ماذا يفعل بهذا المال. فلما وصل الغلام وأعطى أبا عبيدة المال قال أبو عبيدة: وصله الله ورحمه. ثم قال: تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان. وبهذه الخمسة إلى فلان وقسمها كلها. ورجع الغلام وقص ذلك على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده قد أعد مثلاًها وأمره أن يذهب إلى معاذ بن جبل. وقال له اذهب إلى معاذ وقل له: يقول لك عمر بن

شينا إفرأ). ونلاحظ أن موسى عليه السلام كان راكب في السفينة ولو غرقت السفينة لغرق مع أهلها. ولو أنه قال للخضر: "أخرقتها لتغرقها" يقصد نفسه وأصحاب السفينة لم يكن ذلك عيباً ولا خطأ لأنه يطلب سلامته وسلامة الآخرين. لكننا نجد نفس نفسه تماماً وينسى صاحبه الخضر ولا يهتم إلا بمصلحة أصحاب السفينة الفقراء المساكين فقال (لتغرق أهلك).

أى إيثار. هذا الذى ينسى به المرء ذاته ومصالحه الشخصية ولا يرى سوى مصالح الآخرين... نرى فى القرآن أيضاً قول النملة لأخواتها حين هم نبي الله سليمان وجنوده العبور على جحورهم قالت: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطيتكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون). فهذه النملة لم تهتم بمصالحها وتقول كما يقول الناس اليوم نفسى نفسى بل اهتمت بمصالح أخواتها النمل فى وقت الشدة والبابس... فهل يتعلم المسلمون أدب الإيثار ويجعلوه واقعا ملموسا فى حياتهم حتى ينعموا ويغنموا ويمدوا.

(١) ومعنى كفن الشاة أن العرب كانوا يذبحون الشاة ويسلقونها ويغطونها بعجين التمح ثم توضع فى التتور حتى تتضج ويختلط دسها بالعجين فيصير طعاما جيدا.

الخطاب اجعل ذلك في بعض حوائجك. وتلكا في البيت ساعة. وفعل معاذ ما فعله أبو عبيدة من توزيع المبلغ على الفقراء والمحتاجين. غير أن امرأة معاذ قالت له وقد أوشك المال على النفاد: نحن والله مساكين فأعطائنا.. وكان قد بقي ديناران من الدنانير الأربعمائة فأعطاهما لها.

وهذا ذو النورين ^(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه أخته تجارته وكان المسلمون في ضيق. وجاء التجار ليشتروا البضائع التي جاءت بها قافلة عثمان وقالوا له: نربحك الدرهم درهمين. فقال: عندي من أعطائي أكثر من هذا. فقالوا: نربحك الدرهم ثلاثة. فقال لهم نفس العبارة: عندي من أعطائي أكثر من هذا. فصاروا يزيدون له في الربح وهو يرفض فقالوا له: من أعطاك أكثر مما نعطيك وليس في المدينة تجار غيرنا؟! فقال لهم: أعطائي ربي بكل درهم عشرة فالحسنة بعشر أمثالها أشهدكم أن كل ما ترون من العير والتجارة صدقة على فقراء المسلمين.

أليس هذا الخلق الندي (خلق الإيثار) هو روح الإسلام وهنأفه الحائي الذي يملأ قلوب أتباعه على لسان نبيه رسول الله ﷺ حيث يقول: «إن الله اختار لكم الإسلام دينا فزينوه بحسن الخلق والسخاء. فإنه لا يكمل إلا بهما» ^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله. قريب من الجنة. قريب من الناس. بعيد عن النار... والبخيل بعيد عن النار. بعيد عن الجنة. بعيد عن الناس. قريب من النار... ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل» ^(٣).

انظر إلى من حولك من جيران وزملاء وغيرهم ترى شبح الأثرة ^(٤) وحب النفس مسيطرا على الجميع - إلا من عصم الله تعالى - وتجد التزاحم على السلع التي يشاع أن ثمنها سوف يرتفع. وقد تجد في هؤلاء المتزاحمين من ليس في حاجة إليها أو عنده ما يكفيها إلى أن تتوفر السلعة بعد ذلك. وترى الأثانية تزكم الأنوف برائحتها التي تنبعث من قلب غارق في مستنقع كدر وقذر... إن الأثرة تولد الطمع والجشع والخيانة وحب

(١) لقب عثمان بن عفان بذو النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ. السيدة رقية. والسيدة / أم كلثوم وقال رسول الله بعد وفاتهما: (لو كان عندي ثالثة لزوجتها) رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) الأثرة عكس الإيثار وهي حب النفس وتفضيلها على الغير.

المصلحة. وتدل على إقفار القلب من الإيمان والسماحة - وإذا ما انتشر ذلك في قوم إلا تفرقوا وهزموا وذلوا. وتستلهم التاريخ ليقدم لنا نموذجاً يؤيد ما نقول... فقد هزم أصحاب طليحة الأسدي - الذي ادعى النبوة - أمام عدد أقل من المسلمين. فتعجب طليحة وسأل أصحابه فقالوا له: إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله. وأنا لنلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه - فكان ذلك شهادة للمسلمين وما يشيع بينهم من الحب والإيثار. وشهادة على أعدائهم وما يشيع بينهم من الأثرة وحب النفس^(١).

وإن تعجب فأعجب أن يبلغ الإيثار حداً يفوق الخيال. فهذا إنسان لا يؤثر إنساناً على نفسه. ولكنه يؤثر حيواناً باعتباره روحاً خلقها الله تعالى ويعطيه طعامه ويصير هو وبييت على الجوع... هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - وكان لكرمه يلقب بأكرم الناس - خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه. إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط - الستان الذي فيه الغلام - كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام برغيف فأكله. ثم رمى إليه الرغيف الثاني والثالث فأكلهما فقد كان الكلب جائعاً. وعبد الله بن جعفر ينظر فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ فقال: ما رأيت ثلاثة أرغفة: رغيف للفظور وآخر للغداء وثالث للعشاء. فقال فلم أثرت هذا الكلب بقوت يومك؟ فقال: هذه أرض ليس فيها كلاب. فلما رأيت هذا الكلب علمت أنه أتى من مسافة بعيدة جداً. فكرهت أن أشبع وأترك هذا الكلب جائعاً. فقال: فما أنت بصانع اليوم وقد بقيت بلا قوت؟ فقال: أطوى يومي هذا وأصبر على الجوع. فقال عبد الله: يلومني الناس على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى مني. ثم اشترى الغلام والحائط وأعتقه وملكه الحائط.

إن الحديث عن الإيثار يحلو ويحلو ويطول ويطول إلى أن يصل إلى ضرب من الإعجاز. لأن الإسلام خلق به إلى القيم العالية وجعله يمتزج بالشعور. بحيث أنه حينما يصدر عن صاحبه يصدر عن طبيعة جياشة وقلب عامر بالثقة فيما عند الله وأن الصدقة لا تنقص المال^(٢). فالإيثار ليس نوعاً من البله كما يدعى بعض الماديين الذين أقفرت قلوبهم من القيم النبيلة ومنها الإيثار. لقد بلغ الإيثار عند المسلمين الأولين الذين تربوا في

(١) وفي هذا الموقف يصدق قول القائل: (والفضل ما شهدت به الأعداء).

(٢) جاء هذا المعنى في حديث شريف رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: ((ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبداً يحسن إلا عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)).

مدرسة الرسول ﷺ قمة شاهقة تتطاول الأبصار وتشرئب الأعناق إلى أعلاها. ولكن أنى لها ذلك؟... فى معركة اليرموك^(١) سقط بعض المقاتلين جرحى. وكانت جراحهم نافذة وبلغ بهم نزيف الدم مبلغا كبيرا. ونال منهم الإعياء والتعب واحتاجوا إلى بعض قطرات يربطون بها حلوقهم - وكان من بين هؤلاء عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه - وتقدم إليه قريب له بكوب من ماء يطفى ظمأه ويروى به غلته. فهل أخذه منه وشربه - وهو فى الحقيقة فى حاجة شديدة إليه؟ لا ولكنه قال له: اسق أخى هذا الجريح الذى بجوارى فلعله يكون أشد احتياجا منى إلى الماء فذهب إلى الثانى فقال مثل ما قال عكرمة: اسق أخى هذا الجريح. وصار الكوب ينتقل من جريح إلى جريح حتى فاضت نفوسهم إلى بارئها... هذه قصة تروى للعالم كيف خلق الإسلام من العرب أمة كتبت فى تاريخ الأخلاق أنصع الصفحات وأضوأ السطور كيف لا وقد تعلموا ذلك نظريا من القرآن، وعمليا من سيرة رسول الله ﷺ وقد كانوا قبل أن يشرفوا بالإسلام يعيشون على السلب والنهب والافتتال فى سبيل الشيء الثافه! ألم تستمر حرب اليرموك أربعين سنة بسبب قبضة من حشائش الأرض أخذتها ناقة من أرض ليست ملكا لصاحبها وعد صاحب المرعى أن هذا اعتداء على كرامته ورمى الناقة فى ضرعها. وغضب صاحب الناقة وقتل قاتل الناقة. وهكذا عاشت هذه الحرب الذى شاب فيها الصغير وفنى فيها الكبير بسبب قبضة من حشيش الأرض!!

هذا هو الإسلام وهذا هو أثره فى صنع الحياة الأفضل. الإسلام الذى يريد له العلمانيون^(٢) أن يظل حبيسا تحت قباب المساجد وداخل تجاويف المحاريب دون أن يكون له أثر فى الرقى بالحياة والإحياء. ودارت الأيام دورتها وتغيرت الأحوال وحاد الخلف عن طريق السلف "طريق الإيثار" إلى طرق أخرى متشعبة من الأنانية والجشع

(١) حدثت معركة اليرموك سنة خمس عشرة من الهجرة. وكانت فى شهر رجب. وكانت بين المسلمين - وعددهم أربعة وعشرين ألفا وقادهم أبو عبيدة - وبين الروم - وكان عددهم عشرين ومائة ألف - وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف حتى جاء نصر الله. وورد أن هرقل قال لجنوده: لم انتهزتم؟ قالوا لأننا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد... ويقوم المسلمون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويتناصحون بينهم. وقيل إن أول من قتل من المسلمين فى هذه الواقعة رجل جاء إلى أبى عبيدة وقال له: لقد تهيأت لأمرى فهل لك إلى رسول الله من حاجة؟ قال أبو عبيدة: تفرقه منى السلام وتقول له إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا - بتصريف من كتاب البداية والنهاية.

(٢) العلمانية مصطلح فكرى حديث معناه فصل الدين عن الحياة وقصره فقط فى دور العبادة.

وحب الذات فاقتتلوا وتصارعوا. ونهب المال العام والخاص واخذ بغير حقه. وكل ذلك لأننا جعلنا أخلاق الإسلام وراء ظهورنا. وصار الهدف هو الثراء مشروعاً كان أو غير مشروع وصرنا نسمع من يقول: " هبر هذه الهبرة أو خطف هذه الخطفة ! وما درى هذا الإنسان أنه مسؤول عن الفتيل والقطيمير. والذرة وما دونها قال تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ^(١). كان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه فخط خطا مستقيما وحول هذا الخط خط خطوطا أخرى متعرجة ثم قال: «هذا - وأشار إلى الخط المستقيم - صراط الله مستقيما» ثم قال: وهذه الخطوط ليس منها خط إلا وعليه شيطان يدعوا إليه. ثم قرأ قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} ^(٢).

يحكى أنه كان في بنى إسرائيل قحط شديد. وجلست امرأة تأكل لقمة كانت عندها فجاءها سائل وقال لها: لقمة لله. فأخرجتها من فمها وأعطتها له وخرجت لتحنط. وكان لها ابن صغير فوضعتة إلى جوارها وجعلت تجمع الحطب. فجاء ذئب وحمل الصبي فصاح وسمعت الأم صيحة ابنها فجرت وراء الذئب. فبعث الله جبريل فأنقذ الطفل من فم الذئب ودفعه إلى أمه وقال لها: يا أمة الله لقمة بلقمة... أرضيت؟

أعظم ألوان الإيثار

ومن أعظم ألوان الإيثار تقديم النفس وبذل الدم والتضحية بالروح في سبيل العقيدة. فما أرخص الحياة الدنيا إذا قيست بالحياة الآخرة! ولقد قيل بحق: لو أن الدنيا جوهرة تفنى والآخرة خزف فبقي لكان على العاقل أن يقدم ما يبقى على ما يفنى. فكيف الأمر بالعكس فالدنيا خزف فانية والآخرة جوهرة باقية... فالتضحية بالنفس في سبيل الدين وفي وقاية الرسول ﷺ أسمى أنواع الإيثار.

يجود بالنفس إن ضمن البخیل :: والجود بالنفس أسمى أنواع الإيثار
و هل بلغك نبا أبى طلحة الأنصاري؟ وكيف كان يقف أمام رسول الله ﷺ ليكون بمثابة درع بشرى يؤثر رسول الله على نفسه. ويقول له: يا رسول الله لا تشرف حتى لا

(١) سورة الزلزلة. الآية رقم (٨، ٧).

(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٥٣).

يصيبك سهم. ثغري دون ثغرك فداء. وصدري دون صدرك وقاء^(١)... ثم هو الذي أخذ ضيف رسول الله ﷺ حينما لم يجد رسول الله ما يقرى به هذا الضيف. فقال لأصحابه: من يضيف هذا الليلة؟ فقام أبو طلحة وقال: أنا يا رسول الله. وذهب به إلى بيته وسأل امرأته أن تقدم ما عندها لضيف رسول الله ﷺ. فأخبرته أنه ليس عندها إلا طعام العيال. فاتفقا على أن تعلل الأم أطفالها حتى يناموا ثم تقدم الطعام للضيف ويجلسان معه. وتظهر كأنها تقوم لتصلح المصباح ولكنها تطفئه. ثم يضعان أيديهما مع يد الضيف ولكنهما لا يأكلان حتى يأكل الضيف ويشبع. ونفذت ذلك فعلا وأكل ضيف رسول الله صلي الله عليه وسلم ويات الأب والأم والعيال بدون طعام. وفي الصباح قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأبي طلحة: لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما... وعجب الله تبارك وتعالى هو قبول هذا العمل وحسن المثوبة عليه... فهل فينا من يبلغ به الإيثار إلي هذا الحد وتحن نردد المثل الذي يقول: "إذا احتاج البيت الزيت فلا نعطه للمسجد". والمثل الذي يقول: "أنا وليكن بعدي الطوفان".

إن تاريخ المسلمين زاهر بالأمثلة الرائعة لهذا الخلق النبيل "خلق الإيثار"... ولنعد إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد كان يودها أن تدفن في حجرتها إلى جوار أبيها الصديق. وزوجها سيد الخلق رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم تكن حجرتها تتسع إلا لثلاثة قبور غير أنها أثرت الفاروق عمر بن الخطاب حين لقي الشهادة وهو واقف في المحراب بين يدي ربه يؤم المسلمين في صلاة الفجر. وطعنه أبو لؤلؤة المجوسي قاتله الله ولعنه. وأرسل الفاروق ابنه إلى عائشة يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه وأوصي ابنه أن يقولها: يقول لك عمر - وحذره أن يقول لها يقول لك: أمير المؤمنين... إنه يقدم نفسه كفرد من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وليس كأمرير المؤمنين - وهنا قالت أم المؤمنين: كنت أريد هذا المكان لنفسى فلاؤثرنه به. لقد بلغ الإيثار مبلغا عظيما في شخص رسول الله صلي الله عليه وسلم حتى فضله الله به علي سائر الخلق...

ذكر الإمام الغزالي: أن موسى عليه السلام قال لربه عز وجل: "يا رب أرني بعض

(١) حدث هذا في معركة أحد. وقد جرح في هذا اليوم رضي الله عنه جروحا كثيرة وشملت إصبعه. وقال عنه رسول الله: (من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فليتنظر إلى طلحة بن عبد الله). وقال عنه أبو بكر الصديق: (يوم أحد كان كله لطلحة).

درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته. فقال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك. ولكن أريك منزلة من منازل جليلة عظيمة فضائلها بها عليك وعلي جميع خلقي. فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف من أنوارها نفسه ولقربها من الله تعالى. فقال: يا رب بماذا بلغت به إلي هذه الكرامة. قال: بخلق اختصاصه به من بينهم وهو الإيثار يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأت من " جفني حيث يشاء" ^(١).

ونسأل هنا عدة أسئلة ثم نجيب عنها..

س ١: هل يجوز للمرأة أن يؤثر غيره على نفسه وأولاده بكل ما يملك؟

والجواب: إن ذلك جائز وما جور صاحبه كما فعل أبو طلحة مع ضيف رسول الله ﷺ ولكن بشرط أن يكون حسن الثقة بالله تعالى فلا يندم بعده حتى لا يحبط عمله وبحيث لا يسأل الناس. فقد قال رسول الله ﷺ لرجل جاء بكل ماله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «يأتي أحدكم بجميع ما يملك فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس» - يسألهم ^(٢) ولعل رسول الله ﷺ كان يعلم حاله... أما دليل الجواز فلقد تصدق أبو بكر بكل ماله في غزوة العسرة. ولما سأله رسول الله: "ماذا تركت لأولادك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله" ^(٣).

س ٢: هل هناك إيثار مذموم؟

الجواب: إذا أثر الإنسان المعصية على الطاعة. وأثر الدنيا على الآخرة.. والدليل على ذلك قوله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} ^(٤) وقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} ^(٥)... هذا هو الإيثار المذموم بنص القرآن الكريم. وفي تسميته إيثاراً في نوع من السخرية والذم لأنه يؤثر

(١) نقلاً عن أخلاق القرآن للشرابصي. الجزء رقم (١) الصفحة رقم (٥٧).

(٢) الحديث رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم. واشترط العلماء كذلك لجواز التصديق بجميع المال أن يكون المتصدق قوياً مكتسباً غير مدين. وبعضهم اشترط ألا يكون عنده من يعولهم... قال رسول الله: (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت أو يعول).

(٣) الحديث رواه أبو داود والترمذي وصححه.

(٤) سورة الأعلى. الآية رقم (١٦، ١٧).

(٥) سورة النازعات. الآيات أرقام (٣٧، ٣٨، ٣٩).

المذموم علي الممدوح. والإيثار الحق هو ما كان عكس ما ذكر. وهناك إيثار مكروه فقط وليس مذموم. ونستدل عليه بقول أحد الصالحين إن استطعت ألا يسبقك أحد إلى مولاك فافعل. ولا تؤثر على مولاك شيئاً: ونمثل ذلك بالجلوس في الصف الأول. فإذا كنت جالساً في الصف الأول لا تنتظر الصلاة فلا تؤثر بمكانك أحداً فإن الملائكة تصلي على الصف الأول ثم الذي يليه. والمكان لمن سبق إلا إذا أثرت إنساناً عالماً ليكون وراء الإمام مثلاً. وأنت لست من أهل الإمامة... وحين التزاحم على الحجر الأسود وقدمت شيخاً كبير لا يستطيع أن يصل إليه فآثرته على نفسك باعتبارك قوياً تستطيع أن تقبل فيها لشوط الثاني أو الثالث فيكون لك ثواب المؤثرين... ومثل ذلك الشرب من ماء زمزم والصلاة خلف مقام إبراهيم وهكذا. فتلك مواقف يحمد فيها الإيثار لمن لم يستطع ذلك. والله تبارك وتعالى أعلم بالسرائر.

* * * * *

من أخلاق المؤمنين :

الاستقامة

قال أحد الصالحين: رأيت رسول الله ﷺ في النوم. فقلت: يا رسول الله: روى عنك أنك قلت: شيبني هود وأخواتها. فما الذي شيبك منها؟ قال النبي ﷺ: قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).

الاستقامة

الاستقامة فى معناها تعنى الاعتدال والبعد عن الاعوجاج والانحراف. فنقول مثلاً: " فلان مستقيم" بمعنى أن أخلاقه لا تنحرف إلى هنا أو هناك. ويقول إمام الصلاة للمصلين خلفه: " استقيموا يرحمكم الله. إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج ". وعلى ذلك فالإنسان المستقيم هو الذى يسير على هدى الكتاب والسنة ولا ينحرف عنها. ونحن نطلب من الله عز وجل فى اليوم الواحد الهداية إلى الصراط المستقيم سبع عشرة مرة كحد أدنى - ففى سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

ولقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تزعج زوغان الثعلب. وقال الإمام ابن تيمية: " الاستقامة كلمة جامعة أخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدي الله على الصدق والوفاء ". ويقول تلميذه ابن القيم: " اعظم الكرامة لزوم الاستقامة ".

روى مسلم فى صحيحه عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: (قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. فقال ﷺ قل آمنت بالله ثم استقم)... فأنت تجد أن رسول الله ﷺ أمره بالإيمان باعتباره الأساس الذى لا يعمل عمل بدونه. ثم أمره بالاستقامة على مقتضى هذا الإيمان والتقيد بقيود أوامره ونواهيه.

فالمؤمن الحق هو الذى يعتقد اعتقاداً راسخاً يملأ عليه أقطار الأرض وأبعادها بوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته ووحدانيته. وأنه المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ناطقه وصامته. ساكنه ومتحركه {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَبْذَبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ^(١)... وهو لهذا يراقب الله عز وجل ويلتزم بالمنهج الذى شرعه الله لعباده. فلا يميل مع الهوى. ولا ينحرف عن الصراط المستقيم.

وجاءت مادة الاستقامة فى كثير من الآيات القرآنية... ومن ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^(٢) - أى إلى الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ ويقول عز من قائل: {وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى

(١) سورة الأنعام. الآية رقم (٥٩).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٢١٣).

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ^(١) - فإذا اعتصم الإنسان وتمسك بأمر الله سبحانه وتعالى فقد هداه إلى الصراط المستقيم. ولأهمية الاستقامة على الصراط المستقيم قال الشيطان: {لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}. ^(٢) .. إن الشيطان يقعد لابن آدم على طريق الجهاد فيقول له موسوسا: لمن تترك امرأتك وأولادك الصغار وأهلك العجوز ووالدك الشيخ المسن - ولا عائل لهم إلا أنت؟ فمن جبن ورجع فقد وقع فى حبال الشيطان. ومن استعاذ بالله من وسوسته ومكره فقد أفلح. وحتى لو استشهد فإن الله عز وجل يخلفه فيهم بخير ما يخلف فى عياده الصالحين. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * لَوْلَا مَنْ غَفَرَ رَحِيمٌ} ^(٣).

وهذه الآيات الكريمات تحدث عن حالة الاحتضار... فالمؤمنون المستقيمون على شرع الله وعلى سنة رسول الله ﷺ فى هذا الوقت العصيب - تنزل عليهم الملائكة فتطمئنهم على ما تركوا من خلقهم من ذرية فلا يحزنون. كما تطمئنهم على ما يقدمون عليه من حساب وعقاب فلا يخافون. ويزفون لهم البشرى فى الحياة الدنيا على السنة الملائكة قبل أن يخرجوا من الدنيا. ثم البشرى التى لا بشرى تعدلها وهى دخول الجنة التى أعدها الله لهم وزرع أشجارها وأجرى أنهارها بيده عز وجل. وأن لهم فيها ما تشتهى أنفسهم وما يطلبون وما يريدون.

وجاء الأمر بالاستقامة إلى جوار ذلك من الله عز وجل لرسوله ﷺ قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا} ^(٤)... ويطول بنا الحديث لو استعرضنا آيات القرآن الكريم التى تدعوا إلى الاستقامة.

(١) سورة آل عمران الآية (١). (١).

(٢) سورة الأعراف. الآية (١٦).

(٣) سورة فصلت الآيات رقم (٣٠، ٣١، ٣٢).

(٤) سورة فصلت الآية رقم (٦) - ورد أن أحد الصالحين رأى رسول الله فى المنام فقال له: يا رسول الله روى عنك أنك قلت: (شيتنى هود) فما الذى شيتك منها؟ فقال رسول الله: قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).. سورة هود. الآية رقم (١١٢)... ذكره القشيري فى رسالته الصفحة رقم ٢٩٩.

أنواع الاستقامة

ومن الممكن أن نقسم الاستقامة إلى ثلاث أنواع هي:

١ - الاستقامة في العقيدة. ٢ - الاستقامة في الخلق. ٣ - الاستقامة في العمل.

أولاً: الاستقامة في العقيدة:

تعنى العقيدة الوسطى بين طرفين مذمومين هما: إنكار الألوهية بالمرء وبين تعددها. فالاستقامة في العقيدة تعنى الإيمان بوحدة الله تعالى... فأما الملحدون فهم قوم انطمست بصائرهم فلم نهتد إلى آيات الله الكونية الماثلة في ثنايا هذا الكون الفسيح، وعميت أبصارهم عن ملاحظة مظاهر قدرته عز وجل في خلقه. وإنما شأنهم شأن أسلافهم الذين كانوا يقولون: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا السَّيِّئَاتِ مُمُوتٌ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} ^(١) وكانوا يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر وعلى طريق هؤلاء الملحدين من أهل الجاهلية سار الملحدون من أبناء هذا العصر الذين يقولون: إن هذا العالم نشأ بالصدفة ونقول: كذبتم. قد تصدق مرة واثنين وثلاثاً. أما أن تسير الحياة على نسق لا يتخلف ولا يتبدل ولا يتغير فذلك دليل قدرة الله عز وجل.

وفي كل شيء له آية :: تدل على أنه الواحد

وحيثما تنجح النمرود أن أعطاه الله الملك. وحاج إبراهيم عليه السلام قال له إبراهيم: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} ^(٢). فبهت الذي كفر وظهرت سخافة كفره وتفكيره. فالشمس التي تشرق بميعاد لا يتخلف لا ثانية ولا أقل من ذلك. والأرض في حركتها الدائرية. وتغايير الفصول - إلى غير ذلك - لا يمكن أن يتم بطريق الصدفة. ولكنه يتم بقانون رباني. وبقدرته دونها جميع الخلق من إنس وجن: فالإلحاد إذن أمر مرفوض لأنه بعيد عن الاستقامة.

وتعدد الآلهة طرف مذموم أيضاً وباطل. والقرآن الكريم قال: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} ^(٣). لأن الشركاء لابد أن تقع بينهم العداوة والبغضاء فيختل نظام الكون وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨.

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢.

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مُّبْخَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ^(١) والاستقامة في العقيدة تجعل المسلم يعيش حياته كلها لله. لأنه عز وجل واهبها - {قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكَيْتُ وَخَفَيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}^(٢) - والاستقامة في العقيدة لها تبعات ومسئوليات وليست مجرد دعوى يدعيها الإنسان ويلوكمها بلسانه. وإنما هي أعمال يقوم بها المؤمن ويترفع عن مغريات الحياة وشهواتها الزائلة - قال تعالى: {زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أُوْثِقْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}^(٣).

ثانيا: الاستقامة في الخلق:

تعني الخلق الحسن بين طرفين مذمومين. ونضرب لذلك مثلا يوضح هذا المعنى فنقول: إذا تعرض شخص إنسان بإساءة ما فإن أمامه ثلاثة احتمالات: إما أن يجبن الإنسان ولا يدافع عن نفسه. وحينئذ يزداد المسيء إساءة ويزداد الجبان ذلة على ذله وهذا أمر مذموم.

أن يغالي في رد الإساءة فيرد الصاع صاعين وهذا طغيان نهى الله عنه... وهو أيضا أمر مذموم، الاستقامة وتتمثل في قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}^(٤). ويقول تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}^(٥) وهذا هو الوسط المحمود.

ويفتح القرآن الكريم أمام الذي يريد أن يأخذ حقه باب العفو والصفح. وكان رسول الله ﷺ قد عزم على أن يثأر لعمه حمزة حينما قتله وحشي بتحريض من هند امرأة أبي سفيان - التي حاولت أكل كبده - فلما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «صبروا يا رب». وترك

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١.

(٢) سورة الأنعام آيتان رقم (١٦٢، ١٦٣).

(٣) سورة آل عمران آيتان رقم (١٤، ١٥).

(٤) سورة الشورى آية رقم (٤٠).

(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٦.

القاتل فأسلم وحسن إسلامه وقتل مسيلمة الكذاب فكان يقول: (قتلت في جاهليتي خير الناس حمزة عم رسول الله ﷺ). وقتلت في إسلامي شر الناس مسيلمة الكذاب).

مثال آخر يبين معنى الاستقامة في الخلق فنقول: أمامك في إنفاق المال ثلاثة طرق: طريق محمود وطريقان مذمومان. فالطريقان المذمومان يتمثلان في: البخل والتقتير أو الإسراف والتبذير. والوسط هو الطريق محمود - قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} ^(١). وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} ^(٢).

ثالثا: الاستقامة في العمل:

هي أيضا طريق وسط بين طريقين مذمومين هما: الإفراط والتفريط. فهؤلاء الذين يغالون ولو في الأعمال الصالحة ليسوا على طريق الاستقامة ومثلهم أيضا المقصرون في عبادة ربهم - وإن كان الأولون أفضل من المقصرين.

وفي الحديث الشريف: «جاء ثلاثة إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أخبروا بما كانوا يقولونها - أي عدوها قليلة - فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ ولم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل ولا أرقد. وقال الثاني: وأما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء.. ولما علم رسول الله ﷺ قام خطيبا فقال ما معناه: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. أما والله إني لأتقاكم الله وأخشاكم له. ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء. هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» ^(٣).

وقال في حديث آخر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه بروقي. إن المنيب لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»... ^(٤) ذلك لأن الإنسان قد يطيق العبادة شابا قويا يعجز عنها

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٩.

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٧.

(٣) حديث صحيح.

(٤) معنى الحديث أن الذي يركب دابة ويكثر من ضربها حتى توصله إلى مراده في وقت قصير ستموت دابته من كثرة ضربه لها ولن يصل هو إلى بغيته والنتي هذا يضرب مثلا للمتشددين يطالبهم بالوسط والاعتدال.

شيخا مسنا: «وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» ^(١): «وإن لبدنك عليك حقا ولربك عليك حقا ولأهلك عليك حقا. فأعطى كل ذي حق حقه» ^(٢).

لا أريد أن أثبط همم العابدين. وإنما أريد لهم التوسط في العبادة. وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام من الالتزام بمنهج القرآن الكريم الذي يهdy للتي هي أقوم. ومن المداومة على الأعمال الصالحة والالتزام بالصراط المستقيم. وإذا فعل المسلمون ذلك واستقاموا على الجدة لفتح لهم ربهم أبواب الرزق ليعيشوا في الدنيا عيش السعداء. ويعيشوا في الآخرة عيش الأنقياء المنعمين برضوان الله تعالى ورحمته. - قال عز من قائل: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ ^(٣).

أسأل الله أن يرزقنا ويرزق جميع المسلمين بالاستقامة على الصراط القويم: آمين.

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم.

(٢) جاءت هذه المعاني في ضمن جملة أحاديث عن رسول الله.

(٣) سورة الجن آية رقم ١٦.

من أخلاق المؤمنين :

حفظ الأسرار

أسر رجل إلى صديقه حديثاً ثم قال له:
أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟
قال: بل نسيت.

حفظ الأسرار

المحافظة على الأسرار خلق كريم وصفة نبيلة ينبغي أن يتصف بها المسلم وأن يطويها بين جوانحه. فكم من سر إذا أفشى أوقع العداوة والبغضاء بين الناس. وهذا الخلق لا يقدر عليه إلا الأقوياء الأسوياء. ولا أعنى بالقوة هنا القوة العضلية الجسدية ولكن أعنى قوة الإرادة التي تتحمله ولا تبوح به. ذلك أن حمل الأثقال يقدر عليه أصحاب النفوس القوي والنفوس الضعيفة. أما حفظ الأسرار فإن أقوياء النفوس هم المؤهلون لحمله وحدهم.

إن الله حفظ أسرار السموات من أن يتسمعها الشياطين. قال تعالى عن الجن: {فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} ^(١) وقال عز من قال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} وقال تعالى: {إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} * وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} ^(٢).

ولقد أوصى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له. قال له: {يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} ^(٣). ولأن هذه الرؤيا طيبة فهم يعقوب منها أن الله اجتنبى يوسف واصطفاه على إخوته. وفي إفشائها خطر عليه لأن إخوته وهم المرموز لهم في الرؤيا بالكواكب الأحد عشر سوف يفهمون سرها وسوف يكيدون له بوسوسة الشيطان لهم.

وقد ذكر أهل الكتاب أن يوسف عليه السلام ذكر هذه الرؤيا أمام زوجة أبيه. فذكرتها بدورها إلى إخوته فكلدوا له الكيد المعروف من التآمر على قتله أو إلقائه في الجب وكل ذلك لإفشاء السر ^(٤)... ولكننا نستبعد ذلك ونقول: ما كان ليوسف عليه السلام أن يخالف نهى أبيه وتحذيره. ولا سيما وقد علل والده هذا النهى بأن الشيطان سوف يدفع

(١) سورة الجن آية رقم ٩.

(٢) سورة الصافات آيات أرقام ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥.

(٤) نقل ذلك ابن كثير نقلا عن أهل الكتاب.

إخوته إلى الكيد له. لكننا نطمئن إلى ما ذكره القرآن الكريم من أن سبب الكيد راجع إلى أنهم ذكروا أن أباهم يفضلهم عليهم. كما قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١) واقترحوا أن يقتلوه أو أن يلقوه بعيداً في الصحراء. واستقر رأيهم أن يلقوه في الجب - ولو أن هذه المؤامرة سببها إفشاء يوسف لسر الرؤيا لذكره القرآن الكريم وهو أحسن القصص.

وهناك مجالات كثيرة للأسرار وينبغي أن تكون منطقة محرمة لا يقترب منها إنسان ولا يتطفل عليها أحد. ومن أجل ذلك نهى القرآن الكريم عن التجسس والإطلاع على عورات الناس وأسرارهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(٢). ويحسن بنا أن نذكر نماذج من حفظ الأسرار لأناس اتصفوا بهذه الصفة الكريمة. ونماذج أخرى لأناس ضعفت عزائمهم وضافت صدورهم عن حمل أمان الأسرار فباحوا بها.

من النماذج المشرفة لحفظ الأسرار:

(١) حينما مات زوج حفصة بنت عمر رضي الله عنه وانقضت عدتها عرض عمر على أبي بكر الصديق أن يتزوجها. ولكن أبا بكر لم يرد على عمر لا بالقبول ولا بالرفض وظل صامتاً. وانصرف عمر وذهب إلى عثمان بن عفان وعرض عليه ابنته فقد انتهت عدتها. وكان عثمان صريحاً مع عمر فاعتذر له بأنه لا ينوي الزواج الآن. وما هي إلا أيام حتى خطب رسول الله ﷺ حفصة وتزوجها. وأحسن أبو بكر أن عمر قد وجد في نفسه شيئاً فقال لعمر: لعلك قد وجدت على حينما لم أرد عليك بشأن حفصة. ذلك لأنني كنت سمعت رسول الله ﷺ يذكرها وما كنت لأفشي سر رسول الله. ولو تركها لتزوجتها.^(٣)

وأحب أن أقف وقفة قصيرة مع هذا الموقف بشأن زواج حفصة. فعمر رضي الله عنه يعرض ابنته علي أبي بكر وعثمان وليس في ذلك أدنى غضاظة ما دام الرجل الذي يعرض عليه رجلاً صالحاً فيه الكفاءة والإيمان. بعكس ما قد يفعله أبناء عصرنا من أنهم يرون ذلك نقیصة. وحاشي لأصحاب رسول الله ﷺ أن يفعلوا ما يعييبهم... ومن

(١) سورة يوسف آية رقم ٨.

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٢.

(٣) الحديث رواه البخاري عن عبدالله بن عمر.

قبل عمر عرض الشيخ الكبير على موسى عليه السلام أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرًا فمن عنده ^(١). ولو كان في ذلك غصاصة ما فعله. ومن بعده عرض سعيد ابن المسيب ابنته على أحد تلاميذه بعد أن ماتت زوجته... وهكذا يجب أن نتعلم من هؤلاء الأعلام ضارئين بأعرافنا عرض الحائط لأنها لا تتفق مع الإسلام.

ثم انظر إلى موقف أبي بكر رضى الله عنه وكيف أنه حافظ على سر رسول الله ﷺ. لأننا لو فرضنا أن أبا بكر ذكر لعمر أن رسول الله يرغب في حفصة ثم بدا لرسول الله أنه لا يتزوجها فكيف يكون وقع ذلك على عمر وعلى حفصة؟ وعثمان كان صريحا أيضا مع عمر وأنه ليس مستعدا للزواج... هؤلاء هم صحابة رسول الله الذين تربوا على يديه واتصفوا بكل صفات الكمال البشرى الذى تعلموه منه ﷺ.

(٢) نموذج ثان لحفظ السر لكنه لحدث صغير وليس لرجل كبير كأبي بكر. هذا الحدث هو أنس بن مالك رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ. وذلك أن أنسا كان يلعب مع أترابه من الصبيان ومرو عليهم رسول الله ﷺ فسلم عليهم ثم أرسله رسول الله ليقتضى له حاجة. فذهب أنس وقضاها لرسول الله ولكنه أبطأ على أمه. ولما سأله عن سبب تأخره أخبرها أن رسول الله ﷺ أرسله في بعض حوائجه. فسأله عن ذلك فقال: ما كنت لأفشى سر رسول الله. فسعدت بابنها وقالت له: لا تفشى سر رسول الله ﷺ ^(٢).

انظر إلى أنس الصبى وكيف حافظ على سر رسول الله حتى عن أمه. وكيف أمرته أمه أن يظل محافظا عليه... ما أحوج أبناؤنا أن يتعلموا منه وأن يتعمدوا على حمل أمانة السر ^(٣).

(٣) كذلك وصى العباس ابنه عبدالله بعده وصايا منها حفظ السر. ذلك أن العباس رأى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم عبدالله ويجلسه مع كبار الصحابة الذين لا يعدوا عبدالله أن يكون صغيراً في سن حداثتهم. وذلك لأن عمر رأى فيه علما وفقها -

(١) ذكر القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: (إلى أريد أن أنكِحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمِنْ عِدَّتِكَ وما أريد أن أخضع عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين) سورة القصص الآية رقم ٢٧.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه والبخارى أيضا.

(٣) جاء حديث عن رسول الله يؤكد هذا المعنى وهو قوله: (إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك) وقوله أيضا: (إذا حدث الرجل رجلا بحديث ثم التفت هكذا - يريد ألا يراه أحد - فهي أمانة).

وأن الأمر ليس بالنسب ولكن بالعلم - وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». واستجاب الله دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم لابن عمه فصار يعرف بترجمان القرآن وبالحبر وبالبهر وذلك لغزارة علمه. قال العباس لابنه: يا بني إني أرى هذا الرجل - يقصد عمر بن الخطاب - يقدمك على الأشياء فاحفظ على خمساً:

- ١- لا تفشين له سرا.
- ٢- ولا تغتابين عنده أحدا.
- ٣- ولا يجرين عليك كذبا.
- ٤- ولا تعصين له أمرا.
- ٥- ولا يطلعن منك على خيانة.

ما أجمل هذه الوصايا الخمس وما أحرانا أن نعلمها أبناءنا.

(٤) ولا ننسى فاطمة الزهراء حينما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيقبض في مرضه هذا فبكت. وأسر إليها أنها من سيدات أهل الجنة فابتسمت. وسألها عائشة أم المؤمنين عن ذلك فاعتذرت بأنها لا تفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم تبح بذلك إلا بعد وفاته^(١).

بعض نماذج لأناس أفشوا بعض الأسرار

(١) هذا أبو لبابة رضي الله عنه أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة اليهود^(٢). في أثناء حصار رسول الله لهم. فلما وصل عندهم - وكان حليفا لهم - في الجاهلية قبلوه بالبكاء والنحيب. وسألوه: ماذا يريد رسول الله منهم؟ فأمر بده علي حلقه - يعني أنه سوف يذبحهم جزاء وفاقا لغدرهم وتأمرهم مع الأحزاب ضد رسول الله - ولكن أيا لبابة سرعان ما فطن إلى أنه أفشي سر رسول الله. وذهب من فورده إلى مسجد رسول الله ﷺ وربط نفسه إلى سارية من سواريه وحلف ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ.

(١) تبين بعد ذلك أن سبب يكاوها إخبار النبي لها أنه سوف يموت وسبب ضحكها أنها أول من تلحق به من أهل بيته في الجن - وقد كان ذلك بالفعل... وقد ورد عن علي بن أبي طالب قوله بعد أن علم ما حدث بين النبي وابنته فاطمة: (إن النبي أبكى ابنته وأضحكها حتى لا يفعل ما لخصه الله لنفسه) - يقصد قوله تعالى: وأنه هو أضحك وأبكى سورة النجم الآية رقم (٤٣)... والحديث رواه الإمام مسلم في صحيحة عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) بنو قريظة طائفة من اليهود كانوا يسكنون المدينة. وعقد النبي معهم صلحا لكنهم خاتوه وتحالفو مع مشركي مكة في غزوة الأحزاب. فحاصروهم النبي حتى أجلاهم عن المدينة.

ومكث على ذلك تسعة أيام حتى كان يغشي عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته. وجاء من يبشره بذلك وأراد أن يحل وثاقه ولكنه طلب ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ؛ فحله رسول الله من الوثاق بيده الشريفة. فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي إذا تاب الله علي. فقال له صلي الله عليه وسلم: «يجزيك الثلث أن تتصدق به»... وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخَوْفُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْفُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١). ومن الأمانات المذكورة في الآية حفظ السر كما قال رسول الله ﷺ: «الجالس أمانة». وفهمت توبة الله على أبي لبابة أن الآية الكريمة صدرت بنداء المؤمنين فلم تنف عنه الإيمان.

(٢) نموذج آخر لحاطب بن أبي بلتعة: الرجل الذي شهد بدرًا - فهو من السابقين إلى الإسلام - ولكنه في لحظة ضعف أفشى سر رسول الله ﷺ في فتح مكة... ذلك أن قريشا نقضت صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبعثها فدعا وقال: «اللهم خذ العيون والأبصار من قريش». وبدأ رسول الله بحشد كل الطاقات لهذه المعركة الفاصلة لفتح مكة معقل الشرك والوثنية. وبلغ العتاة المستبدين الظالمين الذين أخرجوه هو وأصحابه ظلما وعدوانا إلا أن يقولوا: "ربنا الله". وأمر رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين أن تجهز له متاعه الذي لا بد للمحارب من تجهيزه. ودخل أبو بكر على ابنته وهي تعد لرسول الله متاعه فسألها: أيريد رسول الله سفرا؟ قالت: نعم. فسألها: أين يريد؟ فقالت: لا أدري. ثم أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالاستعداد للذهاب إلى مكة. ولكن حاطبا كتب رسالة إلى قريش يعلمها بنية رسول الله وأنه قادم لقتالهم. وأعطى هذا الكتاب إلى امرأة من موالي بني هاشم جاءت من مكة إلى المدينة تستعين برسول الله. فأعطاهها وأمر من معه من بني هاشم أن يعطوها فأعطوها. ولما همت بالعودة أعطاها حاطب هذا الكتاب لتوصله إلى أهل مكة وأعطاهها عشرة دراهم. فجعلت الكتاب في ضفائرها وسارت عائدة إلى مكة. ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان ليترك رسوله وقد أفشى حاطب سره فأخبره رسوله بشأن هذه المرأة والكتاب الذي أرسله معها حاطب. فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبا مرثد وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - اسم مكان فإن بها ظعينة معها كتاب لقريش فائتوا به». وانطلق الفرسان الثلاثة وأدركوها فعلا في نفس المكان الذي حدده رسول الله.

(١) سورة الأنفال الآية رقم (٢٧).

وطلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت في أول الأمر. فأقسم علي أن معها الكتاب فما كان لرسول الله ﷺ أن يخبر بشيء غير صحيح - وهو الذي لا ينطق عن الهوى - وقال لها إما أن تخرجي الكتاب أو لنجردنك. ولما أيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه قالت: غصوا أبصاركم. وأخرجت الكتاب من عقاص - ضفائر - شعرها. واستدعى رسول الله ﷺ حاطباً وقال له: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: يا رسول الله! لا تعجل علي. إني كنت امرؤاً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم بمكة. فأحببت إذ فاتني ذلك النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً». فقال عمر: يا رسول الله إنه خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم: «أليس من أهل بدر. ولعل الله قد اطلع علي أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»... ونزل قوله تعالى في أول سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾..^(١) تري لو أن هذا الكتاب قد وصل إلى أهله. ألا يمكن أن يقوموا هم بحركة مباغثة لرسول الله ﷺ قيل أن يتم استعدادة للحرب. ويكون ذلك بسبب إفشاء السر؟

(٣) نموذج ثالث لا ثنتين من أمهات المؤمنين أفشوا سر رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم فعاتبهما الله وهندهما بالطلاق وأن الله سوف يزوجه خيراً منهما - فهما الخاسرتان إذن - قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَاكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ﴾^(٢)... وقصة ذلك أن رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم كان يحب العسل. وكان عند أم المؤمنين زينب بنت جحش شيء من ذلك. فكان رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم يذهب إلى بيتها ويشرب من العسل. فتواطأت أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة أن رسول الله ﷺ صلي الله عليه وسلم إذا دخل عند واحدة منهما أن تقول

(١) القصة ذكرها البخاري في صحيحه وكتاب السير.

(٢) سورة التحريم الآيات أرقام ٣، ٤، ٥.

له: أكلت مغاير^(١) - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحب إلا الرائحة الطيبة - فقال النبي: بل شربت عصلا. فقالت كل واحدة له: جرست نحلة العرفط^(٢). فأسر رسول الله إليهما إلى أنه حرم العسل على نفسه^(٣).

ولعل المراد بالتحريم هو عدم العودة إلى شرب العسل مرة أخرى لا أنه جعله حرماً أي لا يباح أكله. وإلا فإن الله قال عن العسل: {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}^(٤). وفي ذلك أمور أحب أن أتوقف عندها قليلاً لنستخلص العبرة والعظة. ومن ذلك

١ - دمانه خلق النبي ﷺ وحسن معاشرته لأزواجه رضوان الله عليهم. فقد امتنع عن شرب العسل وهو حلال له إرضاء لهن. قال تعالى في أول سورة التحريم: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. فلم يكن النبي جباراً عليهن وكيف وهو القائل: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي». وفي ذلك تماسك للأسرة وحفظ كيائها.

٢ - مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه... فقد أعلم الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بما كان من أمر عائشة وحفصة. وبين الله لهما أن عليهما أن يتوبا إلى الله لأن قلب كل منهما قد مال عن الحق {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} وهذا يستدعي التوبة إرضاء لله وإرضاء لرسوله ﷺ.

٣ - بين القرآن الكريم أن تظاهر المرأتين لا يضر إلا بهما فإن الله بقوته مولاه. وكذلك جبريل عليه السلام. وكذلك صالح المؤمنين. فأين هم من هؤلاء.

٤ - تهديد القرآن الكريم لهما بالطلاق وأن الله سبحانه وتعالى سوف يبدله أزواجا خيراً منهن - وليس مثلهن - وقد وصف الله الزوجات في سورة التحريم بأنهن: {مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِيَاتٍ غَائِبَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارَاتٍ...} وكل ذلك يدل على مكانة رسول الله ﷺ عند ربه وعلى خطورة إفشاء السر.

(١) شيء يشبه سمع له طعم حلو غير أن له رائحة غير مستحبة.
(٢) أي النحل أكل من ظهر المغاير وهو العرفط فظهرت الرائحة في العسل.
(٣) ذكره الطبراني بسند ضعيف ولا شاهد له في الصحيحين.
(٤) سورة النحل آية ٦٩.

من مجالات حفظ الأسرار ما يكون بين الرجل والمرأة في حجرة النوم. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينهما فقط. فبعض الشباب قد يتباهي برجولته أمام أصدقائه ويقول فعلت وفعلت. وبعض الشابات قد يتباهين بما فعله معهن الأزواج لتبين أنها محبوبة ومحظية عند زوجها. وما دري هؤلاء وأولئك أنهم قد أفشوا سرا كان يجب أن يظل محفوظا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي هي إليه. ثم ينشر سرها»^(١).

إن للبيوت حرمة ولها أسرار. فيجب أن تصان الحرمات وأن تحفظ الأسرار. ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾...^(٢) قد يدخل إنسان بيت صديقه ثم إذا خرج قال: رأيت كذا وكذا. وفي ذلك إفساء للسر ينبغي أن يترفع عنه المسلم. ومن مجالات حفظ السر أن يحفظ الإنسان سره إذا أحب ألا يطلع عليه سواه. فإذا أفشى سره لأحد فذكر هذا ذلك السر لثالث فاللوم كله على صاحب السر لأنه إذا ضاق صدره عن أن يكتمه فصدر غيره أشد ضيقا. قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه :: ولام عليه غيره فهو أحق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه :: فصدر الذي يستودع السر أضيق^(٣)

قد يقع إنسان في معصية ما وقد ستره ربه. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينه وبين الغفور الرحيم - يتوب إليه من ذنبه ويتبرا مما جنته يداه. ولكن البعض يظن أن الإتيان بالمعصية " شطارة وفهولة " فيهلك ستر ربه عنه ويقول: فعلت كذا وكذا وضحكت علي فلان واستغفلت فلان وفي ذلك مجاهرة بالمعصية والرسول يقول: «كل أمي معافي إلا المجاهرين». وإذا أراد مع ذلك أن يقلده غيره وأن تشيع الفاحشة فقد وقع تحت طائلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري.

(٢) سورة النور آية ٢٧.

(٣) وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث :: وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عانيت من أفشى حديثي :: وسرى عنه قاتل الملوم.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(١)... وإن من المجانة أن يعمل العبد عملاً بالليل ثم يصبح قد ستره الله فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه فيصبح ويكشف ستر الله عنه.

فهذا الذي ارتكب الفاحشة وقد ستره ربه لم يقابل نعمة الله بالشكر. إذ كان من الجائز أن يكشف الله ستره عنه ويفضح أمره بين الناس ولو أرحى على نفسه ألف ستر وستر - ولكنه جحد هذه النعمة - من أجل ذلك كان أهلاً لأن لا يغفر الله له... ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى عمل المعصية وأن يكتم الإنسان سر هذه المعصية. ليس ذلك مقصوداً ولكننا ندعو الإنسان إذا زلت قدمه وستره الله أن يتوب ولا يذكر هذا الذنب لأحد حتى لا يقلده فيكون قد حمل وزره ووزر من قلده.

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه - ستره - عليه. فيقول عملت كذا وكذا. فيقول: نعم. فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفر لك اليوم»... على المسلم أن يستر نفسه وأن يتوب إلى ربه. وإذا حدثته نفسه بشيء ما فعله ألا يفصح عن ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تكلم أو تعمل».

من مجالات حفظ السر:

أن يطلع الإنسان على أخيه المسلم وهو على معصية، فعليه أن يرشده وينصحه وأن يستر عليه - فربما كان ذلك أفضل من فضيحته. جاء رجل اسمه هزال وذكر لرسول الله ﷺ أنه رأى ما عزا - اسم رجل - يفجر بإمرأة محرمة عليه. فقال له النبي ﷺ: «يا هزال هلا سترته بثوبك لكان خيراً لك»^(٢) وقال ﷺ: «يا معشر من آمن ولم يدخل الإيمان قلبه.. لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم. فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يقضه في بيته»^(٣)... وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ستر على مسلم عورة فكأنما استحيا مؤودة»^(٤)... وقال صلى الله

(١) سورة النور.

(٢) الحديث رواه أبو داود والنسائي.

(٣) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أبو داود وأبو يعلى بإسناد حسن.

(٤) الحديث رواه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد.

عليه وسلم: «من ستر أخاه المسلم في الدنيا قلم يفضحه ستره الله يوم القيامة». ^(١) إن من الحزم أن يحتفظ الإنسان بسر نفسه ولا يبوح به حتى لأصدقائه خشية أن تتغير القلوب. قال القائل:

احذر عدوك مرة :: واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق :: فكان أعلم بالضرورة

قال الإمام علي رضي الله عنه: "سرك أسيرك. فإذا تكلمت به صرت أسيره" ^(٢). وإعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال. فحفظ الأموال أسير من حفظ الأسرار. لأن حفظ الأموال يكون بالأبواب والأقفال وحفظ الأسرار يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وكلما كثر حراس الأموال كان أدعى إلى حفظها. وكلما كثر حراس الأسرار كان أدعى إلى إفشائها. أيها الأخ الكريم... عليك بحفظ أسرارك. وإذا كان عندك سر يخص أمتك فلا تفضيه فإنك تكون قد أسأت إلى الأمة جميعها. واحذر العيون المتلصصة والأذان المتسعة. واكتم سر أمتك وسر عملك إذا كان الله قد وضعك في هذا الموضع. وكن حذراً يحفظك الله ويحفظ أمتك معك.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

الحديث رواه أبو داود والنسائي.

الحديث رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أبو داود وأبو يعلى بإسناد حسن.

الحديث رواه النسائي والحاكم وقل صحيح الإسناد.

الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

من أخلاق المؤمنين : الأمانة

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

أداء الأمانة

أداء الأمانة لصاحبها صفة لا يقدر على تحملها إلا أصحاب القلوب النقية النقية لمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى من خيرة خلقه. فلقد عرضت هذه الصفة على السموات وعلوها وشموخها وما فيها من كواكب ومجرات - وهى من الضخامة بمكان لا يعلمه إلا الله عز وجل - فأبين أن يحملنها وأشفقنا أن يخنها فيعرضن لعقاب الله وجزائه. وكذلك عرضت على الأرض وما فيها من جبال غاية فى الصلابة والقوة فاخترت أن تكون منقاداً لله على أن تتحملها. ولقد حملها الإنسان. فمن أداها كما تحملها فهو من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وأما من خانها وجدها ولم يؤدها كما تحملها فهو الظلوم الجهول. ظلم صاحب الأمانة وهو الجهول كما قال الله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (١).

وتنوعت تفسيرات المفسرين فى تعريف الأمانة المذكورة فى الآية وذلك بتنوع الأمانة نفسها. فمنهم من قال: إن الأمانة هى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فمن عمل بمقتضاها فلم يخش إلا الله. ولم يعبد إلا هو. ولم يستعن إلا به. ولم يخلع صفات الألوهية إلا عليه فهو الأمين حقاً. نعم هو الأمين على ما أودعه الله فى قلبه من القطرة النقية التى خلقها الله عليها فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه... وأما من أشرك بالله ورأى الناس. فقد عرق الفطرة وخان الأمانة واستحق الوصف المذكور فى الآية وهو أنه ظلوم جهول - هكذا بصيغة المبالغة وليس الظالم الجاهل فقط.

ومنهم من قال: إن الأمانة هى العقل فمن حافظ على عقله واستخدمه فى معرفة ربه بنظره فى ملكوت السموات والأرض فعرف أن لهذا الكون رباً هو الذى خلقه وهو الذى سن له القوانين التى يجرى عليها. فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون. وأدرك بعقله مظاهر القدرة القادرة والعظمة الباهرة. فهذا

(١) سورة الأحزاب الأيتان رقم (٧١، ٧٢).

الإنسان هو الأمين حقاً... أما من ألغى عقله. واتبع ما ألغى عليه أباءه وقلدتهم تقليد القردة. فهذا الإنسان هو الظلوم الجهول فكان عليه أن يعمل عقله. وأن يستمع إلى الأنبياء والمرسلين وهم يأتونه بالآيات الواضحات والمعجزات البينات. وبذلك يكون أميناً حقاً فيعمل لأخرفته باعتبارها الحياة الخالدة الباقية في كنف الله. ويعمل أيضاً للدنيا بقدر مقامه فيها وبقدر رغبته في زيادة الحسنات وتكفير السيئات.

والرأى الذى أطمئن إليه أن الأمانة هى التكليف الشرعية التى قررها الإسلام وعلمنا إياها رسول الله ﷺ. وبعض هذه التكليف تتعلق بالله وحده كالصلاة والصيام. وبعضها يتعلق بالعباد وحدهم كالمعاملات من البيع والشراء والوديعة والدين وما أشبه ذلك - وبعضها يتعلق بالله وعباده كإخراج الزكاة - فإن فيها حقاً لله وحقاً للعباد - وبعضها يتعلق بالإنسان نفسه. فالبدن ليس ملكاً للإنسان فليس له أن يتلفه أو يكلفه ما لا يطيق: «فإن لبدنك عليك حقاً. وإن لربك عليك حقاً. وإن لزوجك عليك حقاً. فاعطي كل ذي حق حقه». ومن قواعد الدين أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان... وذلك من أسر الإسلام وسماحته.

وما بعث الله نبياً إلا وهو أمين على ما كلفه الله بتبليغه والعمل به. فلو كان خائناً لكم من هذه الرسالة شيئاً. حينئذ لا يكون أهلاً لتحمل الأمانة... وبحسبك أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان يلقيه قومه قبل البعثة بالصادق الأمين. ومن هنا فإنه بلغ أمانة الله إلى الناس ولم يكتف شيئاً مما أنزله الله عليه. قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: " من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزله الله إليه فقد كذب. ولو كان محمداً كاتماً شيئاً لكم قوله تعالى: {وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} ^(١) وكما كان صلى الله عليه وسلم أميناً على رسالة ربه كان أميناً على ودائع الناس. فحينما أراد صلى الله عليه وسلم الهجرة من مكة إلى المدينة كلف ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يودى الودائع إلى أربابها بعد أن يهاجر. أما بنوا إسرائيل فحينما علموا أنهم سيهاجرون مع موسى عليه السلام استعاروا بعض الحلوى من جيرانهم المصريين وخرجوا بها. ولما أرادوا أن يتخلصوا من هذه الحلوى جمعوها. وصاغ لهم السامرى منها عجلاً جسداً له خوار. فقد خائناً الأمانة وحينما أرادوا أن يتوبوا عبوداً من دون الله فكفروا بالله - نعوذ

(١) سورة الأحزاب الآية رقم (٣٧).

بإله من ذلك. ولقد وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام - كما جاء على لسان بنت الشيخ الكبير: {القويُّ الأمين}. وقد حكمت عليه هذه الفتاة بالقوة لما رأت منه كيف أنه سقى لهما بهيبة وعزيمة. ووصفته بالأمانة لأنه طلب منها أن تمشي خلفه حتى لا تتلاعب الريح بثيابها إذا مشت أمامه أو إلى جواره.

وفي سورة الشعراء ذكر لبعض أنبياء الله تعالى وكيف أن كل واحد منهم كان يقول لهم: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}... جاء ذلك على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - صلوات الله عليهم أجمعين... كما قد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين. فهو أمين على وحي الله تعالى يبلغه إلى رسل الله كما تلقاه عن اللوح المحفوظ قال الله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} ^(١). وقال أيضاً: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} ^(٢) - والمراد هنا جبريل عليه السلام. وقبل ذلك بقليل قال الله عنه: {مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ} ^(٣).

ولأهمية الأمانة بمعناها الشامل جاء الأمر ببرد الأمانات إلى أهلها وذلك في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} ^(٤)... وإذا أردنا أن نقف قليلاً مع هذه الآية فنقول: بدأت الآية الكريمة بكلمة "إن" التي تفيد التوكيد. واختير لفظ الجلالة "الله" دون سائر أسمائه الحمى ليبيحث في النفس الضعيفة الرهبة حتى تنصاع وتحافظ على الأمانة وتردها. وجاءت كلمة "الأمانات" جمعاً ولم تأت مفردة مما يدل على تنوعها وشمولها. وجاءت الآية بلفظ "يا أمركم" ليكون ذلك أدعى إلى عدم المناقشة أو محاولة التأويل أو التفسير وإنما هو الأمر الذي يجب الانقياد له.. ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دعا عثمان بن طلحة وكان معه مفتاح الكعبة، فلما جاء قال له رسول الله: "أرني المفتاح". فلما مد عثمان يده بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ قال العباس عم النبي ﷺ: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجتمع لي مع السقاية - وكان العباس يسقى الحجاج. فأراد أن يضم ذلك إلى سدانة الكعبة

(١) سورة الشعراء الأيتان رقم (١٩٣، ١٩٤).

(٢) سورة التكوين آية رقم (٢٤).

(٣) سورة التكوين آية رقم (٢١).

(٤) سورة النساء آية رقم (٥٨).

وخدمتها وذلك بأخذ المفتاح - وهنا قبض عثمان يده على المفتاح خوفاً أن يأخذه العباس. فقال النبي ﷺ: (هات المفتاح يا عثمان). فأعطاه إياه قائلاً: هالك أمانة الله. ففتح النبي ﷺ الكعبة وظهرها فقد وجد فيها حمامة من عیدان فكسرها ثم طرحها. ووجد صورة لإبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام^(١) فقال رسول الله ﷺ: «ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن إبراهيم وشأن القداحة». وكسر رسول الله ﷺ ذلك ومحاه وخرج من الكعبة وهو يتلو الآية الكريمة: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا}. ثم دعا عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح وقال: (خذوها خالدة نالدة لا ينزعها منكم إلا شقي)^(٢).

وإذا كانت الأمانة من صفات المرسلين فإنها أيضاً من صفات المؤمنين. قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} ^(٣) ... وإذا كانت الأمانة من صفات المؤمنين فإن الخيانة من صفات المنافقين. قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا ائتمن خان» ^(٤) وقال أيضاً: «يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب» ^(٥). ونفى رسول الله ﷺ الإيمان صراحة على من لم يحافظ على الأمانة فقال: «لا إيمان لمن لا أمانة له». واستعاذ الرسول ﷺ من الخيانة فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الخيانة». بل أن الرسول ﷺ أمرنا بأداء الأمانة حتى ولو كان هذا الإنسان قد خانك فقال: «أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تحن من خانك». لقد وصف القرآن الكريم مكة المكرمة بأنها البلد الأمين. قال تعالى: {وَالسَّيِّئِينَ وَالزَّيُّونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ^(٦). ومعنى وصف مكة بأنها البلد الأمين أنها حرم آمن فكأنها أمانة على من دخلها.

(١) الأزلام ثلاثة مكعبات من الخشب. مكتوب على واحد منها فعل وعلى الثاني لا تفعل والثالث ليس مكتوب عليه شيء. فإذا أراد إنسان أن يقوم بعمل ما أدخل يده في كيس يجمع هذه الأزلام. فإذا خرج القدر المكتوب عليه فعل سر وافعل. وإذا خرج لا تفعل لم يفعل. وإذا خرج غير المكتوب عليه شيء أعاد ذلك مرة أخرى.

(٢) ذكر هذه القصة صاحب كتاب لباب النقول لأسباب النزول.

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٨.

(٤) الحديث رواه أبي يعلى عن أنس بن مالك.

(٥) الحديث رواه البزار والدارقطني والطبراني. والحديث رواه سعد بن أبي وقاص.

(٦) سورتين الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤).

أنواع الأمانات

ولنتحدث عن بعض أنواع الأمانات ليعلم إخواني وأحبائي مدى عمومها وشمولها:

(١) أمانة تولى الوظائف العامة... جاء أبو ذر لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألا تستعملني - أي توليني عملاً - قال فضرب رسول الله ﷺ منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا الذي أخذ بحقها وأدى الذي عليه فيها»^(١). ذلك أن الوظيفة ليست في نظر الإسلام وساماً يوضع على صدر الوالي. وإنما حمل ثقيل يوضع على كاهله. وسوف يسأل عن هذه الأمانة يوم القيامة. فمن حسبها مغتماً وجاهاً وتكبر على عباد الله كان ذلك خزيًا وندامة. ومن قام بحقها فهو الفائز حقاً... عندما تولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إمارة المؤمنين قل نومه جداً وكان يقول: لو نمت بالليل أضعت نفسي - يقصد أنه لا يقوم الليل - وإذا نمت بالنهار أضعت الرعية... وكلما كانت الوظيفة حملها أشد كان السؤال عنها أصعب... وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لو عثرت بغلة بشاطئ الفرات لوجدتني مسؤولاً عنها أمام الله لم لم أهد لها الطريق؟ وحينما طعنه أبو لؤلؤة وقيل لعمر: استخلف واجعل ابنك عبد الله واحداً ممن تستخلف. قال: يكفي أن يحاسب من آل الخطاب واحداً عن أمور المسلمين. وحينما استخلفه أبو بكر قال: يا خليفة المسلمين لا رغبة لي فيها. قال الصديق: لكنها لها رغبة فيك.

أين هذا من بعض الذين تولوا أمور المسلمين وأخذوا البيعة لأبنائهم بالذهب والسيف وقال: من أطاعنا قلناه هذا - وأشار إلى الذهب - ومن عصانا قلناه هذا - وأشار إلى السيف... ولقد قالتها امرأة لم تخرج من جامعة ولم تدخل كتاباً ولا مدرسة وإنما قالت بالفطرة لعمر وهي لا تعرفه حينما كان يتفقد أحوال الرعية قالت له: الله بيننا وبين عمر. فقال عمر: وما يدرى عمر بحالك؟ قالت: أيتولى أمرنا وينام عنا!! وأشهد أن عمر الفاروق لم ينم عن أمور الرعية وإنما كان يتعرف على حالها ويتفقد شؤونهم^(٢).

(٢) من الأمانات التي ينبغي للمسلم المحافظة عليها الأسرار ومشاكل الذين استودعوا إياها. قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث الرجل رجلاً بحديث ثم التفت - يعني لا يريد أن يسمعه أحد - فهي أمانة». وقال ﷺ أيضاً: «إن من الحيانة أن تحدث بسر

(١) رواه مسلم.

(٢) عند هذا الحد وانتهى كلام الشيخ رحمه الله عن الأمانة. وحيث إنه لم يتم أنواع الأمانات فبقي أمها باذن الله وتوفيقه.

أخيك»... وفي إفشاء الأسرار إيغار للصدور ومنبع للكرامية. وهي من أكبر الأبواب التي يدخل منها الملعون إبليس حتى يفسد علاقة المسلم بأخيه المسلم ويهتك روابط المودة بينهما وأوصر الأخوة التي جمعهما الإسلام عليها. ومن أهم الأسرار التي يجب أن يحافظ عليها المسلم هي ما يكون بين الرجل وزوجه داخل غرف النوم. فلا ينبغي لأحد أن يتحدث بمثل هذه العلاقة لغيره لأنها أمانة وإفشاؤها من أعظم الخيانات. قال رسول الله ﷺ: «إن شر الناس منزلة عند الله الرجل يفضي إلى امرأته والمرأة تقضي إلى زوجها ثم ينشر سرها». ^(١) ومن الأسرار التي ينبغي للمسلم أن يحفظها ما يراه المغسل في الميت. فربما كان الميت صاحب عاهة في جسده يخفيها عن الناس في حياته خشية عزمهم له وعيبهم عليه. فينبغي للمغسل أن يستتر عليه ذلك... وربما ظهر على الميت آثار غضب الله - والعياذ بالله - كسواد الوجه أو شابه ذلك. فيجب أيضا أن يحافظ المغسل على هذه الأسرار. قال رسول الله: «وليغسل موتاكم المأمونون»... ^(٢) فسب الأموات والشماتة بهم أمر منهي عنه في الشرع. قال رسول الله: «لا تسبوا الموتى فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا». بل نهى الرسول عن سب أبي جهل أمام ابنه عكرمة الذي آمن بالله وبرسوله وقال في الحديث الشريف ^(٣): «إن عكرمة يأتيكم. فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه. فإن سب الميت يؤذي الحي ويؤلمه».

(٣) من أنواع الأمانات أيضا الاستشارة. قال رسول الله ﷺ: «من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته». وكيف لا تكون الاستشارة أمانة والمستشير وضع ثقته ووفاءه فيمن طلب منه النصيحة والمشورة. والرسول ﷺ يقول: «الدين النصيحة». فمن خان النصيحة فقد خان الدين وخالف ظن أخيه المسلم به.

جاء في السنن أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ تقول خطبني فلان وفلان وفلان. فمنهم تنصحتي أن أتزوجهم؟ فأشار عليها بقوله: «فلان لا يضع العصي عن عاتقه - أي يضرب زوجته - وفلان صعلوق لا مال له. تزوجي فلان...» هكذا تكون الاستشارة بلا مجاملة أو محاباة لأحد أو خوف منه. ولا يمنع المسلم أن يشير على أخيه بالحق والصدق خشية غضب الناس أو رجاء كسب ودادهم.

والمسلم حين يشير على أخيه بشيء فإن عليه أن يتحرى الصدق ولا يفتيه بالظن

(١) الحديث رواه مسلم

(٢) الحديث رواه ابن ماجه

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب

والوهم. بل بالعلم واليقين حتى يكون أهلاً لهذه الاستشارة. وصدق رسول الله ﷺ القائل: «المستشار مؤتمن». وقال أيضاً ﷺ: «الاستشارة أمانة».

ومن الأمانة كذلك صدق الحديث فيما يرويه المسلم أو يحدث به غيره. قال رسول الله: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب»^(١). لذلك أمر الإسلام المؤذن أن يكون أميناً وتتمثل أمانته في ضبط ودقة أوقات الأذان لأن الناس تضع ثقتها فيه فتصلي حسب أذانه. وتقطر في رمضان عند سماع صوته في أذان المغرب.. وهكذا. قال رسول الله: «المؤذن مؤتمن»... فهو مؤتمن لأن الناس تصدقه. فإن خالف ظنهم به وقصر في مهمته فقد خاتهم.

(٤) البيع والشراء والتجارة أيضاً أمانة. ولو علم التاجر أن بضاعته التي يأخذها منه الناس أمانة، وأنه مسؤول عنها أمام الله إن هو خاتهم وغش سلعته لما راينا أحداً يشتكى الحاجة والعوز، ولنعم الجميع بحياة ملؤها الثقة والإخاء والتعاون والرحمة. قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا. وإذا وعدوا لم يخلفوا. وإذا أؤتمنوا لم يخونوا».

ولخطورة الغش التجاري أنزل الله في القرآن سورة كاملة باسم المطففين الذين ينقصون الوزن ويكثرون الغش. وقد بدأها بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

ولقد اشتهر قوم مدين بهذه الصفة الحقيرة وهي الغش وتطفيف الكيل. فأرسل الله إليهم نبيه شعبياً عليه السلام الذي جادلهم وناقشهم وقدم لهم النصيحة. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾^(٣).

وإذا كانت التجارة مشاركة بين اثنين أو أكثر فعلى المسلم أن يحافظ على مال شريكه كما يحافظ على مال نفسه. قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه»^(٤)... وعاب نبي الله داود عليه السلام على الشريك الخائن فقال: «وإن

(١) رواه أحمد

(٢) سورة المطففين. الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤، ٥).

(٣) سورة هود. الآية رقم (٤٨).

(٤) رواه أبو داود.

كثيراً من الخلطاء ليغني بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»^(١).

(٥) ومما لاشك فيه أن أثقل شيء في الأمانات هي الودائع التي يعطي صاحبها ثقته فيمن ائتمنه عليها مثل المال أو المخدرات أو ما شابه ذلك. نقول إن هذا النوع من أصعب الأمانات لأن النفس البشرية جبلت على حب التملك والطمع. وعلى ألا يتميز عليها أحد أو يفوقها بشيء.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: (يؤتى يوم القيامة بصاحب الأمانة التي خان فيها فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أئني يارب وقد ذهبت الدنيا؟ قال فتمثل له كهينتها يوم أخذها في قعر جهنم ثم يقال له: انزل إليها فأخرجها. قال: فينزل بجمعها على عاتقه - وهي أثقل عليه من جبال الدنيا حتى إذا ظن أنه ناج هوى في أثرها أبد الأبدى: ثم قال: الصلاة أمانة. والوضوء أمانة. والغسل أمانة. والوزن أمانة. وأعظم ذلك الودائع)^(٢).

قال تعالى: {فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِغُضٍّ فَلْيَؤْذَ الَّذِي أُؤْثِمَ أَمَانَةً وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} ^(٣). وأخيراً نحب أن نبين عاقبة الخائنين حتى يكونوا عبر وعظة لغيرهم. قال تعالى..

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} ^(٤).

{وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}. ^(٥) وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له». ^(٦) «يطيع المؤمن على كل خله إلا الكذب والحيانة». ^(٧) أسأل الله أن ينفعنا بما علمنا... وأن ينفع بما علمنا غيرنا.

(١) سورة ص الآية رقم (٢٤).

(٢) الكبائر للذهبي.

(٣) سورة البقرة.

(٤) سورة الحج الآية رقم (٣٨).

(٥) سورة يوسف الآية رقم (٢٢).

(٦) رواه أحمد.

(٧) رواه البزار وأبو يعلى ورواه زوادة الصحيح.

من أخلاق المؤمنين :

الرضا

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ

خَشِيَ رَبَّهُ}

الرضا

خلق الرضا هو خلق يجب أن يتخلق به المؤمن. والمؤمن الراضى يعيش مطمئن القلب مرتاح البال. ذلك أن الخير والشر يستويان عنده لأتھما من قضاء الله عز وجل. فيشكر على السراء ويصبر على الضراء... بعكس الساخط الذى يعبد الله على حرف فإن أصابته سراء فرح. وإن أصابته ضراء دجر وسخط. وهذا ليس من طبع المؤمنين الصادقين.

وليعلم الناس جيداً أن رضا الله عز وجل عن عبد ثواب لرضا العبد عن ربه. فإذا رضى العبد عن ربه ولم يسخط ولم يشك رضى الله عز وجل عنه. قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} ^(١). وقد وردت مادة الرضا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم... قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ^(٢). وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} ^(٣). ومثل ذلك فى سورة المجادلة وفى سورة البينة ^(٤)... والذى نلاحظه فى هذه الآيات أن هناك ارتباطاً بين رضا العبد عن ربه ورضا الله عز وجل عن عبده {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}.

فرضا العبد عن ربه يتمثل فى الرضا فى جميع ما أمر به ولو كان مخالفاً لطبيعة النفس. والرضا عن كل قضاء وقدر ولو كان مؤلماً للنفس. والرضا الأول يسمى (الرضا بالآلوهية). والرضا الثانى يسمى (الرضا بالربوبية) ^(٥). فهؤلاء الذين يضيقون بصلاة الفجر لأنها تاتى والجو بارد وفيها ترك للفراش الدافئ الوسير ينقصهم الرضا بالآلوهية الله. والذين يضيقون بصوم رمضان إذا جاء فى فصل الصيف حيث تجف الشفاه وتيبس

(١) سورة الرحمن. الآية رقم (٦٠).

(٢) سورة المائدة. الآية رقم (١١٩).

(٣) سورة التوبة. الآية رقم (١٠٠).

(٤) آية سورة المجادلة هي: رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله - الآية رقم (٢٢). وآية سورة البينة هي قوله تعالى: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ} الآية رقم (٨١).

(٥) قيل أن موسى سأل ربه أن يدلّه على عمل إذا عمله رضى عنه. فقال الله له: إنك لا تطيق ذلك. فخر موسى ساجداً. فأوحى الله إليه: يا ابن عمران.. إن رضائى فى رضاك بقضائى - الرسالة القشيرية.

الألسنة ليسوا راضين بالوهمية الله عز وجل... وهكذا فالرضا بالالوهية يظهر في الرضا بجميع الأوامر والنواهي. والذين يضيّقون بقضاء الله وقدره في فقد عزيز أو في المرض أو الفقر أو ما أشبه ذلك ينقصهم الرضا بالربوبية... فالقدار الله عز وجل لصالح عباده كما ورد في الحديث القدسي: «أبتليهم بالمصائب لأظهرهم من المعيب». وقال عز من قائل: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ^(١).

فرضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى هو مضممار الإيمان. قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} ^(٢). وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} ^(٣). وقال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا» وفي رواية أخرى: «من قال كل يوم: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا» ^(٤). كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة».

ورضا الله يوم القيامة أفضل من الجنة وما فيها من حور وقصور وأشجار ونعيم مقيم. قال تعالى: {وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}. فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة. بل هو غاية سكانها - جعلنا الله منهم - وفي حديث شريف ما معناه: «إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك» - وفي رواية: «فيتجلى لهم يقول: أنا الذي صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني. فيسألونه الرضا». وفي حديث قدسي ما معناه: «أن الله يسأله: هل أنتم راضون عني كما أنا راض عنكم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أنجيتنا من النار وأدخلتنا الجنة. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أصل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا». يقول بعض المفسرين في قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب

(١) سورة البقرة: الآية رقم (٢١٦).

(٢) سورة النساء: الآية رقم (٦٥).

(٣) سورة الأحزاب: الآية رقم (٣٦).

(٤) الحديث رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب.

العالمين: إحداهما هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها. فذلك قوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} ^(١)... والثانية: السلام عليهم من ربهم - فيزيد بذلك على الهدية فضلاً - وذلك قوله تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ} ^(٢)... والثالثة: يقول الله لهم: إني عنكم راضٍ - ويكون ذلك أفضل مما سبقه - وذلك قوله تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}. وورد الرضا في عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ. نذكر منها:

سأل رسول الله ﷺ طائفة من أصحابه: «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقلوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة»... وفي خبر آخر قال: «حكماء علماء كادوا بفقههم أن يكونوا أنبياء».

قال ﷺ: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه. فإن صبر احتباه. فإن صبر اصطفاه». وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء. أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا».

ولنعلم جميعاً أن ما يقدره الله لعبده فيه الخير لا محالة ولو لم نَرَ نحن ذلك. فعيوننا قصيرة ولا نعلم إلا ما بيننا أيدينا. أما ربنا فهو وحده الذي يعلم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون وهو علام الغيوب... يروى أن رجلاً كان له كلب وحمار وديك. فالديك يوقظ الرجل وأهله للصلاة. والحمار يحمل متاعهم. والكلب يحرسهم. فجاء ثعلب وأكل الديك فحزنوا لفراقه. ثم جاء ذئب وبقر بطن الحمار فحزنوا أكثر. ثم أصيب الكلب بعد ذلك. فقال الرجل: عسى أن يكون ذلك خيراً لنا. ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا حولهم فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم! ولما سأل عن السبب قيل له: إن أصوات حيواناتهم دلت أعداءهم عليهم. فحمد الله على موت الديك والحمار والكلب... فلولم يموتوا وتعالى أصواتهم لأغار أعداؤهم عليهم.

وروى أن سعد بن أبي وقاص أتى مكة. وكان قد كف بصره وكان مستجاب الدعوة وجاء الناس يهرعون إليه وكل واحد منهم يسأله أن يدعو له. قال عبدالله بن السائب:

(١) سورة السجدة. الآية رقم (١٧).

(٢) سورة يونس. الآية رقم (٥٨).

فأكتبته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفني وقال: أنت قاريء أهل مكة؟ قلت: نعم. قال: فقلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فيرد الله عليك بصرك؟! فقتسم وقال: قضاء الله سبحانه وتعالى عندي أحسن من بصرى. ونسأل: هل يتنافى الرضا مع الإحساس بالألم؟ بمعنى أن الله عز وجل إذا ابتلى إنساناً ما ببلاء فأحس بالألم من هذا البلاء - كالإحساس بالألم عند المرض. والإحساس بالألم عند فقد الأحباب - هل الإحساس بذلك يتنافى مع الرضا؟... والجواب: لا. لأن الرضا عمل من أعمال القلب والألم يتعلق بالجسم. وقد يرضى الإنسان وهو مع ذلك يتألم - كالمريض الذي يخبره الطبيب أنه لا بد من إجراء عملية جراحية له حتى يشفى. وأن هذه العملية هي الطريق الوحيد للتخلص من هذا المرض - فالمريض ولا شك راض بذلك بقلبه وعقله وإن كان يتألم بجسمه...

والصائم الذي يصوم في يوم شديد القيظ يشعر بالألم الصيام. ومع ذلك فهو راض عن صومه لأن فيه مرضاة الله... والمجاهد الذي يحس بالألم الضرب والطعان وما أشبه ذلك راض بذلك ابتغاء مرضاة الله. قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء. وفقدان المراجعة بعد القضاء. وهيجان الحب في حشو القضاء... وقال الحسين بن علي رضي الله عنه: من انكل على حسن اختيار الله له لم يئمن عند اختيار الله له.

ونسأل أيضاً: هل الدعاء يتنافى مع الرضا؟ بمعنى أن الإنسان لو نزلت به كارثة مثلاً فهل من الرضا عدم الدعاء بكشفها؟ والجواب: لا. فالدعاء هو العبادة أو مخ العبادة. وكان رسول الله ﷺ في قمة الرضا ومع ذلك كان لا يمل الدعاء. فهو القائل ما معناه: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر. وأعوذ بك من عذاب القبر». وهو القائل ما معناه: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن. وأعوذ بك من العجز والكسل. وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». وأدعية كثيرة ماثورة عنه ﷺ وهي لا تتنافى مع الرضا... وقد أثنى الله على بعض عباده بقوله تعالى: {وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}.

ونسأل ما الذي يتناقض مع الرضا؟

(١) مما تتناقض مع الرضا الحقيقي الرضا بالمعاصي والفجور بزعم أن ذلك قضاء الله وقدره. وهذا فهم خاطيء ورضا مقلوب ولقد ذم الله أمثال هؤلاء في قوله

تعالى: {رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} ^(١) - وذلك في شأن الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقال: {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا}. وقال رسول الله ﷺ: «من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها. ومن غاب عن معصية وأحبها فكأنما حضرها» والراضى بفعل قوم كالدخل معهم فيه... والنصوص كثيرة في كراهية أصحاب المعاصي حتى يتوبوا إلى ربهم وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}. وقال: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ^(٢).

(٢) مما يتناقض مع الرضا الشكوى إلى الناس مما حل به من مرض أو فاقة دون داعٍ يعثير. كالشكوى من ظالم إلى من يستطيع أن يدفع الظلم أو الشكوى من ألم لمن يعرف كيف يداوى هذا الألم مثلاً. أما الشكوى التي لا فائدة منها فهي تنافي الرضا. ولنتعلم من رسول الله ﷺ كيف كانت شكواه إلى ربه حين قال في مناجاته عند عودته من الطائف: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس». وشكوى يعقوب نبي الله عليه السلام حين قال: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} ^(٣)... والمراد بالشكوى التي تنافي الرضا هي الشكوى مع الجزع وعدم الصبر. ولنتذكر بعض أسرار الرضا ولماذا كانت له هذه المنزلة. فنقول - وبالله التوفيق - من أسرار ما يأتي:

أن الراضى عن الله واقف مع اختياره عز وجل يبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. فهو على يقين قلبى أن ما يريد الله له يكون دائماً خيراً من اختياره. يروى أنه اجتمع كلا من سفیان الثوري وهيب بن الورد ويوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره قبل اليوم موت الفجاءة. أما اليوم فوددت أنى ميت. وقال يوسف: ولكنى لا أكره طول البقاء. فقال الثوري: ولم تكره الموت؟ فقال: لعلى أصادف يوماً أتوب فيه إلى الله وأعمل عملاً صالحاً. فقيل لهيب: أى شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً. أحب ذلك إلى أحبه إلى الله. فقبله الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة. أول معصية عصى بها الله في هذا العالم إنما نشأت عن عدم الرضا فإبليس عليه اللعنة لم

(١) سورة التوبة. الآية رقم (٩٣).

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (٢٨).

(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٨٦).

يرض بحكم الله حيث فضل آدم عليه. ولم يرض بأمر الله حيث أمر بالسجود له ^(١). وأدم لم يرض بما أتيح له في الجنة حيث ضم إليه الأكل من الشجرة ووسوسة إبليس وأنه خدع بقسمه ونصحه - {وَفَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} ^(٢). وإن قضاء الله سبحانه وتعالى مما يكرهه المرء لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب. أو يكون سببا لنعمة لا تنال إلا بهذا المكروه... فإن كان عقوبة على ذنب فهو بمثابة الدواء. على العاقل أن يرضى بالدواء لأنه سبب الشفاء. فالعقوبة تمحو الذنب حتى يلقي الله طاهرا مطهرا - وهذا ولا شك في صالح العبد.

وإن كان سببا لنوال نعمة لا تنال إلا به فينبغي أن يكون ذلك محل رضا. لأن المكروه يتلاشى وتبقى النعمة بعد ذلك. وقصة سيدنا موسى والخضر شاهدة على ذلك. فخرق السفين وقتل الغلام وإقامة الجدار في ظاهرها أمور ضارة. ولذلك أنكرها الكريم عليه السلام عليه. ولكن بعد أن فسر الخضر ذلك اتضح أن الخير فيما فعل. الرضا يثمر سرور القلب ويذهب عنه الهم والغم. فالراضي شعاره قول ربه: {لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} لأن ما فات قد يكون في حقيقته شرا فالحمد لله على فواته - ولأن ما جاء قد يكون كذلك في حقيقته شرا فلا ينبغي أن نفرح وحينما جاء الذي عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس قال سيدنا سليمان عليه السلام: «هذا من فضل ربي ليبلونني أشكر أم أكفر» ^(٣). فلم يفرح بمجيء العرش قبل أن يرتد إليه طرفه لأن ذلك قد يكون ابتلاء من الله. وهذا شأن الراضين أنهم يفوضون الأمر كله لله ويختارون ما يختار الله لهم. ولذلك كان بعضهم ينجحون أن يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد أو الفقر بلاء والعيال هم. ولا يسمى شيئا قضاء الله وقدره اسما مذموما إذا لم يذمه الله.

قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لي سرور لأنني بواقع القدر... وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيئان لا أبالي أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل... وقال أحد الصالحين: وددت أن الليل أطول مما هو عليه الآن

(١) قال تعالى حاكيا عن رفض إبليس لأمر الله: قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - سورة الأعراف. الآية رقم (١٢).

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٢١)... وكانت نتيجة أكله من الشجرة هو وزوجه قول الله تعالى: قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مشيئة ومناخ إلى حين - سورة الأعراف. الآية رقم (٢٤).

(٣) سورة النمل. الآية رقم (٤).

لأزداد من الصلاة فيه. فعلق على كلامه أحد الذين بلغوا في الرضا مقاماً سامياً فقال: أحسنت وأسأت. قال: كيف ذلك؟ قال: أحسنت حيث تمنيت طول الليل للعبادة والمناجاة. وأسأت حيث تمنيت ما لم يرده الله وأحببت ما لم يحبه الله. وقال رجل لامرأته: لأشقيتك. فقالت لا تستطيع إن سعادتي في إيماني. وإن إيماني في قلبي. ولا سلطان لأحد على قلبي إلا الله... وفي أثر قدسي: «أنا الله لا إله إلا أنا. قدرت المقادير. ودبرت التدابير. وأحكم الصنع. فمن رضى فله الرضا متى حتى يلقاني. ومن سخط فله السخط حتى يلقاني»... والله در القاتل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر :: والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا :: وفي اختيار سواه اللوم والشوم
ومن مساوى السخط وعدم الرضا...

أن الشيطان لا يتمكن من الإنسان تمام التمكن إلا إذا سخط. فالإنسان الساخط يقول ما لا يرضى الله ويفعل ما لا يرضى الله وينوى ما لا يرضى الله. وتلك كلها وسائل يتمكن بها الشيطان من الاستيلاء على الساخط ويضخم له سخطه. وينفخ في الرماد إذا هذا قليلاً أو رضى قليلاً ليعود إلى سخطه مرة ثانية. ولذلك نرى رسول الله ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم ما معناه: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا. وإنا لفراقك يا إبراهيم غزونون». فرسول الله ﷺ اتسع قلبه الكبير للرضا بقضاء الله وللرحمة بفقد الابن. والبكاء لا ينافي الرضا... فهذه رحمة وضعت في قلب من يشاء من عباده. أن السخط يستدعي عدم ثبات العبد مع ربه في جميع حالاته شأن الراضين. فالساخط إذا أصابته ضراء ضجر ولم يصبر وفي ذلك سخط على القدر كما قال ربنا: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ}. انظر إلى من مات له حبيب ولم يكن من الصابرين فريماً لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية. ولقد أخرج النبي ﷺ هذا من زمرة المؤمنين: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». وفي حديث قدسي ما معناه: «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليخرج من سمائي وليعبد ربا سواي» ^(١)... فالسخط كما يقول بن القيم: يفرع القلب من

(١) حديث ضعيف.

الله. والرضا بفرغ القلب لله.

المسخط يفتح باب الشك في الله - والعياذ بالله - فالساخط على قضاء الله معترض على حكمته وعلمه. فالرضا واليقين إخوان. والمسخط والشك شيطانان مقترنان. روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا واليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا»^(١). وبالجمله فالساخط مخاصم لربه معترض على مولاه. وكان من دعاء الرسول ﷺ ما معناه: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتي بيدك ماض في حكمك. عدل في قضاؤك...» فنواص الخلق بيد الخالق. وأحكامه ماضية. وقضاؤه قضاء عدل... فأين موقع الساخطين من ذلك؟ ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

ومن الآيات التي تدل على الرضا بالله...

قال تعالى: {قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْيَ رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} ^(٢).

قال تعالى: {قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ^(٣).

قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حِكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} ^(٤).

فالآية الأولى... تدل على الرضا بالله ربا وسيدا وإلهيا.

والآية الثانية... تدل على الرضا بالله معبودا مطاعا محبوبا.

والآية الثالثة... تدل على الرضا بالله حكما. والله أعلى وأعلم

* * * * *

(١) حديث شريف رواه ابن عباس عن رسول الله.

(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٦٤).

(٣) سورة الأنعام. الآية رقم (١٤).

(٤) سورة الأنعام. الآية رقم (١١٤).